صراع الأنساق في الخطاب الروائي الجزائري

- قراءة في رواية كراف الخطايا لعبد الله عيسى لحيلح-

Pattern conflict in the Algerian narrative discourse
An approach in the novel Caraf elkhattya by-
-Abdullah Issa Lahilh

خالد سايغي/ طالب دكتوراه
د. عبد الرحيم عزابي

قسم اللغة والأدب العربي-جامعة محمد لمين دباغين –سطيف(الجزائر)
مخبر مناهج النقد المعاصر وتحليل الخطاب
Kh.saighi@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/10/30 تاريخ القبول: 2019/12/10

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة التي حاول من خلالها الروائي عبد الله عيسى لحيلح في روايته كراف الخطايا أن يقف عند أسباب الأزمة الجزائرية، طارحا مجموعة من الأسئلة الفلسفية التي ترتبط بالفرد الجزائري في نظرته وموقفه من ذاته ومن الآخر. كما ترمي الدراسة أيضا إلى الوقوف على مواطن الصراع في المتن الروائي محاولة تفسيره وإرجاعه إلى أصوله ومسبباته، مستعينين في ذلك ببعض تقنيات النقد الثقافي.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الروائي، الأنا، الآخر، الأنساق الثقافية، النقد الثقافي.

Abstract:

theaim of this study is attempting to uncover the embedded cultural patterns through which the novelist AbdallaIssaLahilh has tried, in his novel Sins' Craver korafelkhataia, to examine the causes of the Algerian crisis. He set forth a series of philosophical questions that relate to the Algerian individual in his outlook and position on himself and on others. The study also seeks to identify the areas of conflict in the narrative essence, trying to explain and return to its origins and causes, using some techniques of Cultural Criticism.

key words:narrative discourse, ego, other, cultural patterns ,cultural criticism.

تعد النظرية البنيوية - باختلاف توجهاتها- من أولى النظريات التي كان لها الفضل في الاهتمام بفكرة النسق، قبل أن "يتزايد الاهتمام بالنسق، وبخاصة في الدراسات السردية التي انطلقت من مورفولوجية بروب V.Propp، وترسخت على يد كلود بريمون C.Brimont، وغريماس A.J.Greimas، وجيرار جينات G.Genette، وتزفيتان تودوروف T.Todorov وغيرهم،ومن الملفت للانتباه أن غريماس كان النسق يشكل في نظره مبدأ جوهريا، ولكنه لم يجار اللسانيات البنيوية في مسألة إقصاء المعنى... فالنص لا يتوافر على نسق واحد، وإنما يشمل عدة أنساق وهذا ما أوضحته السيميائيات"[1]؛فالبنيوية اهتمت بالنسق المغلق قبل أن تأتي السيميائية كرد فعل على سجن للغة لتنادي بالنسق المفتوح، ومن هنا يمكن القول أن مفهوم النسق عرف تعددا في التعريفات، واختلافا بين النقاد، كل حسب توجهاته ومجال اشتغاله. كما تعترض مفهومه مجموعة من الصعوبات أبرزها علاقته بمفهوم البنية. فرغم أن دي سوسير لم يصطنع في محاضراته مصطلح البنية، واكتفى باستعمال مصطلح النسق، وتباين تأويل المؤرخين، والدارسين حول العلاقة التي تجمع بين البنية والنسق، هل هما تسميتان لمصطلح واحد؟ أم أنهما مصطلحان متباينان؟، وهذا بسبب الاختلاف الحاصل في تدوين تلك المحاضرات، التي جمعها ستة من طلبة دي سوسير[2].فمفهوم البنية - رغم المجهودات المبذولة من أجل توضيحه- ظل يتلبسه الغموض، إذ أصبح يستعمل في كل المجالات، وهذا ما جعل "البنية كلمة واسعة، حتى. قيل عنها أنها لفظ متعدد الدلالات"[3]،هذا التعدد جعل من مفهوم البنية ملتبسا، الأمر الذي جعل زكرياء إبراهيم يقتنع بأن "البنية ليست مجرد تعبير عن ذلك الكل الذي لا يمكن رده إلى مجموع أجزائه، بل هي أيضا تعبير عن ضرورة النظر إلى الموضوع على أنه نظام أو نسق يكون في الإمكان إدراكه أو التوصل إلى معرفته"[4]،فاعتمادا على هذا القول، وانطلاقا من أن مفهوم النسق يتحدد أكثر عندما تثار علاقته بالبنية.يمكن القول أن النسق أعم من البنية. وما يثبت هذا الكلام ما أورده الزواوي بغورة من أوجه تشابه بين البنية والنسق، أن كلاهما يعتمدان الكلية، والعلاقات،والثبات، والتوازن بين العلاقات. ليميز بعد ذلك بينهما في قوله "كل نسق نظري له بنية منطقية محددة، ومعنى هذا أن الأنساق تتألف من عناصر وعلاقات وبنى. فالبنية أحد المكونات الأساسية للنسق"[5]. وبهذا يكون النسق أعم وأشمل من البنية.

ويذهب تالكوتبارسونز T.Parsons في تعريفه للنسق بأنه "نظام ينطوي على أفراد مفتعلين،تتحدد علاقتهم بعواطفهم، وأدوارهم التي تنبع من الرموز المشتركة، والمقررة ثقافيا في إطار النسق، وعلى نحو يغدو معه مفهوم النسق أوسع من مفهوم البناء الاجتماعي"[6]؛ فبارسونز ذو الخلفية الاجتماعية يجعل من النسق نظاما يربط أفراد المجتمع في علاقات تتحدد أدوار الأفراد ووظائفهم من خلاله، ويعتبر أيضا أن البناء الاجتماعي جزء من النسق.

ويعرفه الناقد المغربي بوشعيب الساوري أنه "عبارة عن مجموعة من العناصر منظمة تنظيما محكما ومترابطة، والتي تشكل عمل وسلوك هذا الكل النسقي، كما أن الكل نسق مشكل من عناصر وأجزاء تنتظم فيما بينها. ويتضمن هذا العمل سلسلة من القواعد والمعايير والشفرات والخطوات التي تكون بمثابة نماذج عمله انطلاقا من علاقات تداخل بين العناصر"[7]؛أي أن النسق مكون من عناصر، حيث يكون الترابط والتنظيم الذي يجمعها سببا في تشكل القواعد والمعايير التي تتحكم في صيرورة هذا الكل النسقي. ويعرف نفس الناقد النسق في موضع آخر، أنه ذلك المنظور الثقافي، الذي تنظم فيه الخبرات الذاتية الفردية لجماعة معينة في عصر من العصور[8].

وهناك من يرى أن النسق "مجموعة من القوانين التي تحكم بنية الظواهر، ومن البديهي أن بنية من البنى لا يستقيم عودها إن هي افتقرت لوجود نسق ترتكز عليه. وهذا النسق يخضع بدوره إلى شروط موضوعية تتمثل في الجوانب الاجتماعية، الثقافية والذهنية وحتى الاقتصادية"[9]، أي يمكن القول إن النسق هو المتحكم في كل البنى، وكل الظواهر. سواء الثقافية، أو الاجتماعية،أو الاقتصادية،...الخ

من خلال ما سبق يمكن القول أن النسق هو مجموعة من الأجزاء تكون متماسكة ارتباطا، ومتكاملة وجوديا، ومتكافئة وظيفيا،من خلال وجود منطق يجمع هذه الأجزاء ويربطها. فالنسق يحقق وجوده من خلال تكامل وظائف أجزائه.

كما يتميز النسق بعدة خصائص ومميزات. حيث يجعل كمال أبو ديب صفة التميز والتكرار ميزة أساسية للنسق في قوله "النسق ظاهرة تتضح من خلال التميز والتكرار..."[10]. أما أحمد يوسف يشير إلى ميزة جوهرية يتميز بها النسق في قوله:"من خصائص النسق أنه معطى أولي مرتبط بلا وعي العقل البشري وكينونته"[11]. فهذه الخاصية التي أشار إليها أحمد يوسف لا تتفق عليها كل المناهج النقدية، فالبنيوية اللسانية تتفق مع فكرة أن النسق معطى أولي، عكس البنيوية التكوينية التي تذهب إلى أن الوعي الجمعي هو الذي يشكل النسق، أما نظرية القراءة والتلقي ترى بأن القارئ أو المتلقي هو الذي يساهم في بناء وتشييد النسق[12]. ويتميز النسق أيضا "بحركيته، وتحولاته، وانتظامه الداخلي. كما أنه يمتلك مرونة التحولات، ويستجيب لمقتضيات التغيرات، فيتكيف معها دون أن يتلاشى جوهره"[13]؛ فالنسق رغم تكيفه مع المتغيرات من خلال تحولاته، إلا أنه يبقى محافظا على جوهره وكنهه وتميزه. ومثال ذلك اللغة، فهي نسق وتخضع لمجموعة من التحولات المستمرة إلا أنها تبقى محافظة على نسقها ومكوناتها الأساسية. وكذلك الأمر بالنسبة لكل الأنساق اللسانية وغير اللسانية.

ويمكن إجمال خصائص ومميزات النسق في النقاط الآتية:

1-كل شيء مكون من عناصر مشتركة ومختلفة فهو نسق.

2-النسق له بنية داخلية ظاهرة.

3-له حدود مستقرة بعض الاستقرار يتعرف عليها الباحثون.

4-قبوله من المجتمع لأنه يؤدي وظيفة فيه لا يؤديها نسق آخر[14].

أولا:النسق الثقافي وإنتاج النصوص:

يعتبر يوري لوتمانy.lotman من النقاد الأوائل الذين قاموا بمقاربة مصطلح النسق ثقافيا، حيث النسق عنده "أصبح دالا على تاريخ الثقافة والأدب والفكر الاجتماعي بصورة عامة"[15]؛ أي أن الأنساق أصبحت عند لوتمان، هي التي تحدد الخصائص الكلية والشاملة للثقافة الإنسانية، وذلك عن طريق تتبع تطورها، وتحولاتها عبر العصور.

كما يعتبر الناقد عبد الفتاح كيليطو من أبرز النقاد العرب الذين اهتموا بالأنساق الثقافية، يعرفه في كتابه "المقامات-السرد والأنساق الثقافية" بأنه "مواضعة (اجتماعية،دينية،أخلاقية،استيقية...)، تفرضها في لحظة معينة من تطورها الوضعية الاجتماعية، والتي يقبلها المؤلف وجمهوره"[16]؛ أي أن الوضعية الاجتماعية –حسب عبد الفتاح كيليطو- والتي تربط بين مؤلف النص وجمهوره من المتلقين، هي التي تنتج النسق الثقافي. هذا الأخير يلقى قبولا من الطرفين، سواء كان قبولا ظاهرا معلنا أو ضمنيا متسترا عليه. فالأنساق الثقافية "نوع من المؤسسات ذات قاعدة اجتماعية"[17]. وهذا ما يجعل للنسق سلطة على الأفراد، فيتحكم في تفكيرهم، وسلوكهم، وتوجهاتهم.

إن النص الإبداعي لا يمكن أن يكون مغلقا أو مصوغا من كتلة واحدة، بل إنه منفتح على أنساق ثقافية أخرى. وهذا ما يجعل من النسق في النص الفني ذو طبيعة نسقية متعددة[18].التعدد النسقي جاء نتيجة لانفتاح النسق الأحادي للنص على الأنساق الأخرى الموجودة في نصوص أخرى. الأمر الذي دفع عبد الفتاح كيليطو إلى القول أنه "ليس للنسق الثقافي بطبيعة الحال وجود مستقل وثابت، إنه يتحقق في نصوص تدّاعيه أحيانا، وفي الحالات القصوى تشوشه وتنسبه"[19]. فالنسق الثقافي إما أن يتحقق داخل النص، ويكون هذا في حالة تكيفه وانسجامه مع الأنساق الأخرى. وإلا تعرض للتشويش والصراع في حالة تعارضه معها داخل النص.

كما توجد الكثير من الدراسات التي اهتمت بالنسق، ودوره داخل الثقافات والنصوص، ومن أبرز هؤلاء نجد عبد الله الغذامي الذي يرى أن النسق " يتحدد عبر وظيفته، وليس عبر

وجوده المجرد"[20]؛ فطبيعة النسق تدرك من خلال الوظيفة التي يؤديها داخل النص. كما يرى نفس الناقد أن الأنساق الثقافية "أنساق تاريخية أزلية وراسخة لها الغلبة دائما"[21]؛ أي أنها موجودة قبل وجود الأفراد، فهي تتحكم بتكوينهم، وبمعزل عن إرادتهم. فالأنساق تحدد توجهاتهم، وتساهم في رسم مستقبلهم قبل أن يولدوا، فهم سيخضعون لمنظومة من العادات، والتقاليد المتوارثة منذ الطفولة، وسترافقهم طوال حياتهم، ليعيدوا إنتاجها بتوريثها لأبنائهم. إذا سلطة النسق الثقافي هي المتحكم والمسيطر.

انطلاقا مما سبق يمكن القول أن الأنساق الثقافية هي نظم systèmes تكون كامنة، في أية ثقافة من الثقافات. وتشمل هذه النظم جميع جوانب الحياة (العرق، الدين، الأعراف الاجتماعية، الشؤون السياسية، التقاليد الأدبية،وعلاقات السلطة،...)، فهذه النظم أو الأنساق لها صلة وثيقة بإنتاج الخطاب الإبداعي، والفكري، وطرائق تلقيه[22]. فهي متحكمة في المبدع الذي ينتج العمل الإبداعي، وكذلك تتحكم في المتلقي وطريقة استقبالها لهذا العمل. والأنساق الثقافية لا تقتصر على الأدب الرسمي في ثقافة ما، وإنما تتجاوز ذلك إلى الأدب غير الرسمي(الشعبي)، فهي متحكمة بجميع أشكال الإبداع الأدبي وغير الأدبي.

يرتبط النسق بوصفه متدخلا ومتحكما في جميع مناحي الحياة في إنتاج النصوص، حيث أن "مفهوم النسق متضمنا أبعاد النص كافة ومكونا لأسس تلقيه وتأويله، وسبل التفاعل معه"[23]، فالنسق الثقافي من الركائز التي تميز مشروع النقد الثقافي، إذ يشتغل على أنظمة الخطاب الظاهرة والمضمرة، للكشف عن الأنساق الثقافية.

إن النصوص هي"نتيجة لهذه التعالقات والتفاعلات بين الأنساق المتعددة، والتي تنتج غالبا عن توافقات وتنازلات متبادلة فيما بينها بحسب الحالة المعروضة"[24]؛ أي أن إنتاج النصوص وإبداعها رهين بتعالقالأنساق، وتداخلها. كما تجدر الإشارة في هذا المقام أن النص الأدبي في حد ذاته يعد نسقا يدخل ضمن نسق عام، لا يمكن له أن ينفصل عنه، فإذا قرأنا مثلا نصا شعريا فلا ينبغي أن نفصله ونخرجه عن نسق الكتابة الشعرية عامة. ولعل أوضح مثال على ذلك ما قدمه فلاديمير بروب في عمله، فنسق الحكاية مرتبط بالنسق السردي العام. وهذا ما حاولت أن تطوره النظرية السردية، ليصبح بعد ذلك تخصصا قائما بذاته في نظرية الأدب[25].

إن البحث عن النسق في النص الأدبي يكون "انطلاقا من فكرة الكلية، والعلاقة التي تجمع بين عناصر النص الأدبي. وقد وجدت الفكرة هداها في أعمال مبكرة أنجزها بروب في دراسته المرفولوجية للحكاية الشعبية، عن طريق تحديده لوظائف النص الحكائي وشموليته، مما دفع ليفي شتراوس إلى تطبيق هذا المنهج تطبيقا عكسيا على الأسطورة"[26].فالأدب يدرك على أساس

أنه تمظهرات جزئية للأنساق المتداخلة. ولا يمكن أن نفسرها،ونفهم سيرها إلا من خلال تعالقها وتداخلها، حيث تعمل الأنساق في الأدب على إبراز القوانين والمادة التي تنتج وتفهم بها النصوص[27].

إن لكل نسق رموزه وقوانينه، إلا أنه في النصوص الأدبية، وبخاصة الرواية ترتبط الأنساق بعضها ببعض، ويبقي كل نسق على توازنه من خلال عملية التبادل، حيث يحتفظ كل نسق بهويته الخاصة. فالروائي في عمله "ينطلق من نسقه الذي يمثل ذخيرته، ونماذج اشتغاله"[28]؛ أي أنه أثناء كتابة عمله ينطلق من مبادئ وأسس يفرضها عليه النسق الذي ينتمي إليه، سواء بوعي أو دون وعي. لكنه نظرا لطبيعة النص الروائي نجد نسق الروائي يتداخل مع أنساق أخرى. ويرجع بوشعيب الساوري سبب لجوء الروائي إلى الأنساق الأخرى أنه "يحس بأن نسقه لوحده عاجز وغير كاف للتعبير عن الحالة التي تعرض له"[29]؛ فالروائي يستعين بالأنساق الأخرى في روايته من أجل حل أزمة ذخيرته ونسقه. وبهذا يقوم بعملين الأول أنه يتجاوز أزمة نسقه، والثاني يعمل عل جعل الأنساق متداخلة، ومن خلال هذا العمل يكون الروائي قد أزال "الجمود والركود الذي قد تتعرض له الأنساق إذا ما بقيت منغلقة على ذاتها، ويضمن لها الاستمرارية، ويزيل الحواجز بين الأنساق، ويحدث نوعا من الاعتراف المتبادل فيما بينها"، وهكذا تنتج النصوص ويتطور الأدب[30].

تجدر الإشارة إلى أن الأنساق أثناء تعالقها، وتداخلها في النص الروائي، تقوم بتنازلات عن بعض سماتها وخصائصها. وهذا ما يساهم في خلخلة هذه الأنساق لتظهر في صورة جديدة، وتشكل نسقا جديدا. ومنه يتشكل النص الروائي الذي يحمل جميع هذه التعالقات والتداخلات التي تحدث بين الأنساق.

إن تشكل النصوص الروائية عن طريق تعالقالأنساق وتداخلها، يفرض علينا في تحليلها ألا "نعزل الأنساق وإنما يجب أن نتناولها في تعالقها، على أساس أن الأعمال الفنية لا تعبر عن نسق أحادي"[31]، لأن النص إذا لم يكن ذو طبيعة نسقية متعددة، يكون نصا متحجرا، ومنه نصا ميتا لا يكتب له النجاح في الساحة الإبداعية. وهذه النسقية المتعددة غالبا ما تقوم على فكرة الصراع والتدافع، والذي نحاول في هذه الدراسة الوقوف على أهم مظاهره من خلال رواية "كراف الخطايا" للروائي الجزائري عبد الله عيسى لحيلح.

ثانيا:شخصية "منصور/المثقف المتمرد :

تعد شخصية "منصور" الأكثر حضورا في المتن الروائي، وهذا ما يدل على الأهمية التي تكتسبها هذه الشخصية. والذي يدل على هذه الأهمية هو أن تصوير النص لها جاء ملما بكل جوانبها."فمنصور" يتميز بالشجاعة الأدبية متذوق للفن والغناء، سريع الحفظ، طيب النفس، نقي السريرة،ذكي ومتمرد رافض للجمود الفكري والجهل. فهو "لا يعدم حين يريد منطقا قويا، وحجة بالغة ولسانا فصيحا، وشجاعة أدبية قل مثيلها بينهم..."[32].

أما من الناحية الاجتماعية "فمنصور" أعزب يتيم الأب، بطال يعيش في كوخ أمه القديم عيشة شاقة وعسيرة، يعيش وحيدا بعيدا عن الأهل..."له أم كريمة تنفق عليه بغير حساب...إلا أنه آثر أن يعيش في هذه القرية في دار أمه القديمة عيشة فيها شظف وعسر وفيها مشقة من حين لآخر..."[33].

ومن الناحية النفسية نجد شخصية "منصور" مضطربة غير ومستقرة تفتقد للطمأنينة، فتارة يهرع إلى الصلاة خاشعا راجيا رحمة الله، ثم بعد فترة يهرول إلى شرب الخمر، وإنما يدل ذلك على اجتماع التناقضات داخل نفسية هذه الشخصية، والتي تعكس ذلك التناقض في قيم ومبادئ المجتمع الذي يعيش فيه، فهو متردد بين صدق وكذب،بين هدوء وانفعال، بين جد وهزل،بين ضحك وبكاء... وهذا ما جعل من "منصور" يتخذ الجنون سلاحا يقاوم به هذه التناقضات في مجتمع القرية.

"فمنصور" باعتباره يحمل شهادة من أعرق الجامعات الفرنسية فهو نموذج للمثقف الجزائري المضطهد والمهمش، فنجده شغوفا بالقراءة والكتب والشعر، فهو رمز لذلك المثقف الذي يحمل قضية يعيش من أجلها يتبناها ويدافع عنها بكل ما أوتي من قوة. "منصور" لم يرض بواقعه الذي فرض عليه، وإنما تمرد على أوضاعه وثار على الانحلال والفساد الذي أصاب هذه البيئة سياسيا واجتماعيا وثقافيا...

استطاعت شخصية "منصور" أن تقوم بعدة وظائف المتن الحكائي. فهي التي تؤطر الأحداث وتبنيها. كما أنها أقامت علاقات متقاطعة مع الأدوار التي تؤديها باقي الشخصيات. كما أن كل الوظائف داخل النص لها ارتباط مع شخصية "منصور" هذه الأخيرة التي تفاعلت وتواجدت في كل جنبات النص من أوله إلى آخره، فكانت بذلك طرفا في كل حوارات الرواية.

صورت لنا الشخصية البطلة "منصور" حالة التمزق والنفاق والفساد المتجذرة في أهل القرية "هذه أخلاقكم يتوارثها اللاحقون المارقون عن السابقين الآبقين..."[34]. فقد كون "منصور" لنفسه فلسفة خاصة به، جعلت منه مجنونا في نظر أهل القرية، فمع انغماسهم في المعاصي

والخطايا بدأ "منصور" يفكر في كيفية كشف ومعالجة خطايا الناس، وبذلك انتزع "منصور" صفة "البطل الإشكالي" حسب جورج لوكاتش وهو ذلك البطل الذي يصارع ويقاوم القيم الدنيئة داخل المجتمع. فقد تبنى "منصور" فكرة التغيير داخل مجتمع تسوده الفوضى،النفاق،الرذيلة والفساد...،فأصبح "منصور" بهذا غريبا في قريته وهذا ما أشعره بالإحباط واليأس اللذين طالما وقفا ضده في محاولة منعه من تحقيق غايته وكشف حقيقة أهل القرية.

تؤدي شخصية "منصور" داخل الرواية عدة أدوار، فقد استغلت نظرة مجتمع القرية لها وتظاهرها بالجنون ووظفته كعنصر مساعد من أجل القيام بدور الناقد الموضوعي لهذا المجتمع المليء بالتناقضات وقد ساعده هذا التظاهر بالجنون في تحقيق هدفه وهو كشف سلوكات أهل القرية الذين يتظاهرون بعكس ما هم عليه، ولم يكن هذا ليتحقق إلا باختراق منصور لكل فضاءات الرواية بحرية تامة وانطلاقا من غرفته، والتي كانت بمثابة مخبر تحليل ومركزا لوضع خططه وتحركاته. هذه الغرفة والتي نستطيع من خلالها التعرف على مواصفات "منصور" وأيضا يمكننا أن نحدد سلوكاته وتصرفاته.فالغرفة أو البيت بوصفه فضاء مغلقا يعتبر المكان الأكثر أمنا لأي إنسان بصرف النظر عن فخامته أو قدمه أو ضيق أو رحابته...، إنه الملجأ الذي ما بعده ملجأ لأي مخلوق، فيه يحتمي عندما يحدق به خطر أو مكروه و قيمة البيت كمكان لا تتحدد إلا من خلال ارتباط الإنسان به، وبالعودة إلى فضاء الرواية نجد فضاء كان مساهما في تحريك أحداث الرواية، وأدى عدة وظائف دلالية، وهو بيت الشخصية البطلة منصور، والملاحظ على بيت البطل أنه يفتقر إلى شخصيات أخرى حيث يعيش "منصور" في بيت أمه القديم، وعاش عيشة عسيرة بعيدة عن عائلته (أمه ، و أخته) وهذا يدل بان "منصور" متحرر من سلطة الآباء على الأبناء و الإخوة الكبار على الإخوة الصغار، كما انه بعيد عن المسؤولية (لا زوجة ولا أولاد) وهذا ما اكسبه صفة الإهمال و العبثية .

ولقد كان التركيز في البيت كله على الغرفة فقط، والتي حظيت بوصف كامل مس جميع مكوناتها، هذه المكونات تحمل مدلولات نفسية وفكرية واجتماعية ومن مكونات الغرفة نذكر:

-الطاولة: بما تحتويه من قصص و روايات ودواوين تدل على أن هذه الشخصية تمتلك حسا إبداعيا وذوق فنيا قادر على تمييز الأعمال الأدبية (الجيدة والرديئة)
_الرفوف: بما تحتويه من مختلف الأحجام، توحي بدرجة وعيه وثقافته ومدى حبه للعلم والمعرفة وشغفه بالقراءة وللكتابة .

-السرير: والذي يحمل عدة دلالات،ففيه يقضي منصور بعض أوقاته، إما نائما أو حالما،أو قارئا أو كاتبا أو شاربا للخمر، ومحركا لخيالاته...

- الكرسي : والذي صوره الكاتب بأنه كرسي ذو" ثلاثة أرجل"، فالرجل المبتورة قد ترمز للمجتمع المبتور الساق الذي لا يستطيع الخروج من الأزمة إلا بالاتكال على عوامل خارجية عنه. ومنه فإن مكونات الغرفة تشير إلى أن منصور شخصية متذوقة للأدب والفن الراقي و شخصية مثقفة ومحبة للعلم واعية فيه، وأيضا فهي شخصية متقلبة لا تستقر على أي حال وهذا بسبب الأوضاع المعيشية الصعبة.

إذا نستنتج من كل ما سبق أن شخصية "منصور" هي الأكثر حضورا في المتن الروائي كما أنها قامت بوظائف وأدوار متعددة، فكانت هذه الشخصية هي التي تؤطر الأحداث وتؤدي المواقف وتفتعل العلاقات مع الشخصيات الأخرى. فشخصية "منصور" هي مركز الأحداث وهذا ما يفسر تصويرها ووصفها من جميع جوانبها في الرواية، وتصوير الشخصية البطلة بهذا الشكل إنما هو في الحقيقة تصويرا للأزمة الجزائرية في شكلها العام. فما كانت تحمله هذه الشخصية من تناقضات نفسية وفكرية واجتماعية هو انعكاس لتلك الحالة للمجتمع الجزائري والذي جسد في الرواية بصورة مصغرة تمثلت في القرية.

وسعي "منصور" ومحاولته الكشف عن المعاصي والخطايا التي كان أهل القرية يرتكبها إنما هو سعي في الكشف عن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى هذه الأزمة التي عصفت ولا تزال تعصف بالمجتمع الجزائري. فمنصور يمثل ذلك الناقد الموضوعي الذي يبحث ويتحرى للوصول إلى الحقيقة الغائبة.

ثالثا:شخصية "الشيخ"/ النسق الديني للقرية:

تعتبر شخصية "الشيخ" من أهم الشخصيات داخل النص الروائي باعتبار تواترها وتقاطعها مع الشخصية البطلة. وكذا امتيازها بمجموعة مواصفات جعلها تحتل هذه المكانة المهمة، حيث كان الشيخ ذو لحية كثيفة تغطي كل وجهه تقريبا يرتدي عمامة وخف حجازي وسروال عثماني كما جاء في الرواية "لحية قد غطت كل وجهه تقريبا...عمامة قد زادته طولا... في وجهه هيبة أرضته..."[35]. وهو إمام مسجد القرية له أتباع من الكبار والصغار، لا يقرأ إلا بعض الكتب الدينية، ولم يتحصل على شهادة البكالوريا "إنه شاب فشل في امتحان البكالوريا وفي نوبة من نوبات رد الفعل التي تنتاب الفاشلين والمحبطين عادة،أقبل على الصلاة...وأقبل على كتاب "الإحياء"...فهو ذو ذاكرة قوية ...وصاروا بعد حلقتين أو ثلاث يلقبونه الشيخ"[36]. امتاز بالنفاق والكذب، خائن للأمانة مرتكب للفواحش لا يهمه إلا ملذات الدنيا وشهواتها.

فشخصية "الشيخ" تدعي حبها لفعل الخير والدعوة إلى الله والاقتداء بسنة رسوله الكريم، غير أنها عكس ذلك. فما يهمها هو تحقيق أكبر قدر من الملذات والشهوات، فهي مصدر النفاق والخديعة وتستغل منصبها للنصب على أهل القرية واستغلالهم، فاستغل قداسة الدين في نفوس أهل القرية للتحايل عليهم وابتزازهم،فجعل الدين وسيلة للكسب. وما ساعد هذه الشخصية في تحقيق أهدافها انخداع أهل القرية بها ،واعتبروها مرجعية دينية لهم وهذا راجع لعدة أسباب أهمها على الخصوص الجهل الذي هو ميزة اتصف بها أهل القرية، ولذلك عملت الشخصية البطلة"منصور" على محاربة الجهل داخل القرية من أجل الوقوف على الحقائق المغيبة.

شخصية "الشيخ" وظفت كرمز للحركة الدينية التي تتميز بالتحجر الفكري، والتقوقع الذهني وضيق الرؤى والتصورات. فهذه الشخصية تحيل إلى سبب آخر من أسباب الأزمة في الجزائر، أي ذلك الاتجاه الديني الذي فشل في الرقي بالإنسان الجزائري وتخليصه من الفوضى والغموض الذي أصاب المرجعية الدينية والفكرية.

كما ترتبط شخصية الشيخ في الرواية بالمسجد والذي يقترن بفعل الصلاة، فالمسجد كمكان يسند إليه دلالات مهمة منها: أنه فضاء لفعل الخير ، وشكر نعم الله وحمده وتسبيحه ، وفيه تؤدي الشخصيات صلاتها وداخله تتابع مجالس الذكر وفيه تودع الأموال التي يتبرع بها في سبيل الله، وهذا ما وضحه "منصور" عند ما تحدث عن أمه " صلت الجمعة بالمسجد ، وتبرعت بعقد ذهبي لصالح مشروع إعلاء المئذنة التي ستكون بعد عام أو اقل"[37]، ولكن حسب أحداث الرواية فإن الدلالات التي حملها المسجد عكس المتوقع ، فمعظم الشخصيات المرتادة للمسجد تبدو سلبية، لأنها لا ترى فيه سوى مكانا مغلق يرتبط بالصلاة والذكر ، دون النظر إليه كفضاء للتوعية و الإرشاد ، وقد أظهرت الرواية كيف أن الشخصيات لم تحترم حرمة المسجد وحولته إلى مكان للفوضى ، وفضاء لمعالجة عقدها النفسية وهذا في قول السارد :" وقبل أن يؤذن له استلقى على أريكة عنابية اللون ، وكان الشيخ جالسا على واحدة أخرى مثلها خلف مكتبه ثم إنهما انخرطا في دردشة ومجاملات يريد لها منصور أن تدور حول الدين ومتعلقات الدين ويريدها " الشيخ " أن تدور حول الدنيا ومتعلقاتها ..."[38] فالمسجد إذا انزاح عن وظيفته الأساسية ، ونخص بالذكر شخصية " الشيخ " التي حولت هذا الفضاء من مكان للعبادة والوعظ إلى مكان لقضاء مصالحها الخاصة ، إرضاء لشهواتها ، وتحقيقا لرغباتها : والملفوظ الآتي يبين ذلك " واستمر الحديث بينهما بالهمس وتحريك الأيدي والرؤوس، وانقباض الأسارير أحيانا ، وانبساطها أحيانا أخرى حتى قام الشيخ إلى صندوق صغير مثبت في جدار المقصورة مكتوبة عليه " في سبيل الله" وفتحه واخرج منه عقدا ذهبيا ، قدمه إليه قائلا : هذا وحسب

السلعة لدى مزيد ، قالها وهو يربت على الصندوق مبتسما"[39] ومنه شخصية الشيخ أهملت الوظيفة الأساسية الموكلة لها وهي تقديس العبادات والعلم والعمل ، فالشيخ كان يفصل بين القول والفعل ، وبين العبادة والعلم والعمل ، من هنا راح منصور يتساءل عن كيفية أداء هذه الشخصية لمهامها وممارستها للدعوة وهي تنظر إلى الدين على انه عباءة ولحية وترى الفقه حفظا و قراءة ، وفي الدنيا فتنة للآخرين وحياة لها حيث قال "كيف يبني ويشيد من يدمر أصالة الإنسان ؟ ..كيف يقدر قدسية الحياة من علموه أن الجمال فتنة تتقى ، والفرح معصية ترتكب و النظر إلى المستقبل بأمل وغرور واستدراج شيطاني"[40]

فالمسجد هذا المكان المقدس أصبح داخل الرواية خال من أية دلالة اجتماعية أو حضارية بل صار مكانا للالتقاء والتجمع ، ونشر الشائعات والأخبار التافهة وترويجها، ونجد ذلك في قول السارد" وما أن قضيت الصلاة و تفرق المصلون حتى شاع خبر غريب في القرية ..وكل الأراجيف في هذه القرية تشاع عقب التفرق من الصلاة ! (...) شاع الخبر الغريب الذي مفاده أن منصورا .. قد جاء إلى داره ومعه فتاةشقراء"[41]

ومن هنا يتضح لنا مدى تردي المستوى الأخلاقي للشخصيات المؤطرة لهذا الفضاء المعروف بأنه مهد الأخلاق ومنبع الطهارة والنقاء ومكان له قيمته الخاصة ، والذي صار على يد هذه الشخصيات عبارة عن مكان كسائر الأمكنة (الشارع ، المقهى) وهذا بسبب فهم الناس الخاطئ للدين والذي أصبح وسيلة لتبرير الواقع لا لتغييره ، وهذا الفهم الخاطئ للدين هو سبب من أسباب التخلف الذي أصاب القرية بصفة خاصة والجزائر بصفة عامة (الأزمة الجزائرية).

رابعا:شخصية "الدركي"/ النسق السلطوي:

جاءت هذه الشخصية في الرواية كمنفذ للقانون عن طريق ممارسة العنف على "منصور" حين قبض عليه وأثناء مكوثه في السجن، فهذه الشخصية "الدركي" لا تحمل إلا معاني الضرب والسب والشتم والقتل والنفي "هنا ارتفع السوط وهوى على كتفه كأنه كان موصولا بزر كهربائي..."[42]. فهذه الشخصية مارست الاضطهاد والتسلط على الشخصية البطلة، فهي تحيل إلى طبيعة النظام السياسي السائد، وفشله في حل الأزمة بل وزاد من حدتها وانتشارها من خلال اختياره للحل الأمني للأزمة عن طريق الاعتقال والتعذيب والتشريد...،وتوظيف هذه الشخصية جاء من أجل كشف تلك الفجوة بين النظام والشعب، بين الراعي والرعية.

وهذه الوظيفة لم تقتصر على شخصية الدركي فقط، إنما هناك شخصيات أخرى تشترك معها في هذا الدور منها شخصية "رئيس البلدية" وشخصية"مدير سوق الفلاح"، فهما رمز

للانتهازيين الذين يستغلون مناصبهم في السلطة من أجل تحقيق مآربهم الشخصية. كما يرمز هذا الدور لسوء الإدارة الجزائرية التي كانت هي الأخرى سببا في تدهور الأوضاع بما يحدث فيها من تسيب ونفاق وفساد.فهاتين الشخصيتين قامتا بسرقة "سوق الفلاح" في القرية واتهمت شباب القرية بذلك. كما ترتبط شخصية الدركي في الرواية بالسجن الذي يعد من الأماكن المغلقة والتي كان لها وجود في هذه الرواية عندما تعرضت الشخصية البطلة للسجن وهذا في الملحوظ الاتي : "لما صار مرميا في القفص المعدني لسيارة الدرك الوطني ، وكانت يداه مقيدتين تذكر نظرة الأسود القلقة من داخل أقفاصها .."[43]. فالسجن في الرواية كان فضاء للقمع والتعذيب حيث أعطانا النص صورة جلية واضحة عن الممارسات العنيفة التي احتضنها هذا الفضاء والضحية "منصور" الذي عذب وأهين وعنف ،وهذا ما نلحظه في القول الآتي "الآن عليك أن تنهق كالحمار ، ولا تتوقف حتى أشير إليك بالتوقف هذا عيب يا حضرت ... الدولة لا يعترض عليها أحد ، وبدأ منصور ينهق كالحمار"[44]، وبالتالي أصبح السجن قبر للأحلام والأفكار وكبت للحرية، فمنصور يعاني من الوحدة داخل هذا المكان الذي وصفه بالوحش ، ويشعر بالانفصال عن العالم الخارجي إذ يتحول هذا المكان في ذهنه إلى قبر مؤقت فيه كل جماليات القبر ، المساحة الضيقة ، الظلام التام ، النوم الثقيل ، الانفصال عن العالم ، الوحدة ، السكون، الحساب ، والدود الذي يأكل الأجسام. وهذا ما يدل على أن السجن كالقبر في جميع صفاته بل وقد يكون أشد قسوة من القبر لأنه يقتل صاحبه قبل الأوان.

ولقد بقي فضاء السجن من الفضاءات المؤثرة في شخصية منصور رغم خروجه من السجن إلا أن الحزن واليأس لم يفارقانه ، حيث شعر بالظلم و الإهانة ، و أدرك المعاناة التي يعيشها الكثير من المظلومين والمسجونين بدون ذنب وهذا ما يدل عليه قوله " ها أنا مرمي كجيفة تعافها حتى الذئاب والكلاب .. ومثلي مئات مرميون كالجيف في الأقبية الرطبة بغير ذنب اقترفوه أو جرم اجترحوه "[45]

خامسا:شخصية "بلال"/ الطبقة الكادحة:

وردت هذه الشخصية في المتن الروائي يتيمة الأب، فقيرة تبيع السجائر ولا تذهب إلى المدرسة رغم أن مكانها الأصلي هناك، فهو صغير السن ولكن الظروف القاسية والمجتمع فرضا عليه أن يكون مقهورا مهمشا، فالمجتمع فشل في ضمان مستقبل هذا الفتى وأمثاله كثر. وهذا ما يدل على هشاشة المنظومة المجتمعية، بل وإضافة لهذا القهر والتهميش لم يسلم من اسم يعيّر به "ابن الهجالة" والهجالة في المجتمع الجزائري هي الأرملة أو المطلقة.

فبلال هو رمز لتلك الطبقة المغلوبة على أمرها، الطبقة السفلى التي تعاني من الجهل والفقر والاضطهاد والانحطاط الأخلاقي .

وتشترك شخصيات أخرى إضافة لهذه الشخصية في نفس الدور داخل الرواية مثل شخصية "بابا كاجي بي"، هذه الأخيرة المسلوبة الرأي والخاضعة لسلطة "الشيخ"، وشخصية "عليوة الزوالي" التي تعاني البؤس والشقاء وكنيته دليل على ذلك "الزوالي"، وهو الفقير المعدم، وكذلك شخصية "عمي السعيد الزبال" والذي رضي باسمه الوظيفي ولم يعترض على مهنته.

فكل هذه الشخصيات تشترك في أنها لا تبذل أي جهد في سبيل التغيير والتجديد حتى في حياتهم الشخصية، فهي خاضعة خضوعا تاما لواقعها المرير.

سادسا: شخصية "الأستاذ حمدان"/المثقف الغائب:

جاء في وصف هذه الشخصية بأنها "ذو ميول يسارية معتدلة، من كثرة حبه للنقاش لا يسلم حتى بالمسلمات، ولا يقر بالبديهيات لأنه لا يقر للقدماء بأي عصمة"[46]. فالأستاذ "حمدان" هو نموذج لذلك المثقف السلبي الذي لا يحمل قضية يعيش لأجلها، وإنما هو فاقد لأمل التغيير في مجتمع القرية. فهو ذلك المثقف الذي لا يبذل أي جهد في سبيل تغيير واقعه فيبقى متفرجا على الأحداث ساكنا أمام مجرياتها، عكس شخصية"منصور" الذي تبنى قضية وعاش لأجلها وضحى في سبيلها.

فشخصية "الأستاذ حمدان" هي رمز لفئة مثقفة لها آراء وأفكار، ولكنها احتفظت بها لنفسها، ولم تبدها إما لفقدها الأمل في التغيير من هذا الواقع، أو خشية على نفسها من الاعتقال والسجن، وهذا ما يفسره الملفوظ السردي التالي:"ولقد هممت أن أسبهم جميعا، ولكن خفت أن يبلغوا عني فقد كثر القوادون في المدة الأخيرة"[47]

خاتمة:

من خلال كل ما سبق يمكننا أن نخلص في هذه الدراسة إلى ملمح عام يصور لنا الأنساق الثقافية التي تعالقت وتداخلت فيما بينها من أجل أن تشيّد البناء السردي لرواية كراف الخطايا والتي تمثلت في:

1- شخصية "منصور" والتي تمثل ذلك النسق الذي يدفع المثقف إلى تغيير واقعه، رافضا للأوضاع السائدة متمردا عليها، مستعينا في ذلك بكل الطرق والوسائل من أجل الوصول إلى غايته.

2- نسق ثان يمثله "الشيخ" الذي يحاول التستر تحت عمامة الدين من أجل القيام بأفعال تتناقض ومبادئ الدين الذي يدعي الدفاع عنه والدعوة إليه.

3- هذا النسق تمثله السلطة بمختلف مؤسساتها السياسية،الأمنية والإدارية...والتي تعمل على استغلال القانون والمنصب لخدمة مصالحها والانتصار لأفكارها .

4- النسق الرابع تمثله الطبقة البسيطة من المجتمع، التي لا يهمها من قضايا المجتمع سوى كيفية تحصيل لقمة العيش، فقد تميزت بالجهل والسذاجة والسطحية في التفكير.

5- النسق الأخير هو ذلك المثقف السلبي الذي يبقى متفرجا أمام أوضاع المجتمع، لا يحرك ساكنا ولا يسكن متحركا خوفا على نفسه.

ومن هنا فالقرية والتي هي عبارة عن فضاء مغلق تدل على أن الفضاء هو فضاء وطن واحد ، والقضية لم تكن مقتصرة على أزمة قرية فقط، وإنما هي قضية وطن شهد أزمات حادة على كافة الأصعدة سياسية، اجتماعية، عقائدية، فكرية... حولته إلى مستنقع للخطايا، ومستنقع للمثقفين، وبالتالي فالقرية ليست سوى صورة مصغرة عن الوطن بكل ما يدور فيه من صراعات و أزمات .

المراجع والهوامش:

[1]أحمد يوسف، القراءة النسقية-سلطة البنية ووهم المحايثة،الدار العربية للعلوم ناشرون،منشورات الاختلاف،لبنان، الجزائر، ط1، 2007، ص113.

[2]المرجع نفسه، ص114، 115.

[3]زكرياء ابراهيم، مشكلة البنية، دار مصر للطباعة، الإسكندرية،(د.ط)، 1990، ص8.

[4]المرجع نفسه، ص8.

[5]الزواوي بغورة، المنهج البنيوي-بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات،دار الهدى للنشر، الجزائر، ط1،2002،ص75.

[6]ايديثكوبزيل،عصر البنيوية، تر:جابر عصفور،دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1993، ص411.

[7]بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق-دراسة في انتاج النص الرحلي،دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2007، ص76، 77.

[8]المرجع نفسه، ص19.

[9]أحمد يوسف،القراءة النسقية، مرجع سابق، ص121، 122.

[10]كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي، دار العلم للملاين، لبنان، ط3، 1984، ص109.

[11]أحمد يوسف، القراءة النسقية،مرجع سابق، ص122.

[12]المرجع نفسه، ص122.

[13]المرجع نفسه، ص122.

[14]محمد مفتاح، التشابه و الاختلاف، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1996، ص158، 159.

[15]ضياء الكعبي، السرد العربي القديم-الأنساق الثقافية واشكاليات التأويل،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،لبنان، ط1، 2005،ص22.
[16]المرجع نفسه، ص21.
[17]أحمد يوسف،القراءة النسقية، مرجع سابق، ص137
[18]عبد الفتاح كيليطو، المقامات-السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، المغرب،ط2، 2001، ص8.
[19]المرجع نفسه،ص8.
[20]عبد الله الغذّامي،النقد الثقافي-قراءة في الأنساق الثقافية،المركز الثقافي العربي،المغرب،ط3، 2005،ص77.
[21]المرجع نفسه، ص79.
[22]ضياء الكعبي،السرد العربي القديم، مرجع سابق، ص22، 23.
[23]المرجع نفسه،ص22.
[24]المرجع نفسه، ص78.
[25]بوشعيب الساوري،الرحلة والنسق، مرجع سابق، ص77.
[26]أحمد يوسف، القراءة النسقية،مرجع سابق، ص120.
[27]المرجع نفسه، ص78.
[28]المرجع نفسه، ص121.
[29]بوشعيب الساوري، مرجع سابق، ص79.
[30]المرجع نفسه، ص77.
[31]المرجع نفسه،ص78.
[32]عبد الله عيسى لحيلح،كراف الخطايا، ج1،مطبعة المعارف،الجزائر،ط2، 2002، ص16.
[33]الرواية، ص1.
[34]الرواية، ص238.
[35]الرواية، ص07.
[36]الرواية، ص79.
[37]الرواية ص55.
[38]الرواية ص63.
[39]الروايةص65.
[40]الرواية ص137.
[41]الروايةص58.
[42]الرواية، ص 198.
[43]الرواية ص195.
[44]الرواية ص201.
[45]الرواية ص204.
[46]الرواية ، ص 173.
[47]الرواية ، ص218.